لن أموت سدى

دراسة نقدية

سمير أحمد الشريف
الأردن

دخول عالم جهاد الرجبي يعني أولا الوقوف مع الالتزام الذي يبرز من خلال كتاباتها كمدماك أول تقيم عليه معمارها الفني الذي قد نختلف معها في نسبة تحققه في عملها هذا.
كثيرة هي المدارات التي ولجتها الكاتبة ولامستها فصول نصها الذي يقترب من القصة الطويلة من حيث إن إطلاق مسمى الرواية يظلم النص ويظلم الرواية بناءً فنياً وتنوع شخصيات.
«لن أموت سدى» القصة الفائزة بجائزة رابطة الأدب الأسلامي العالمية بالمرتبة الأولى تحكي عودة الوعي المتأخرة ورحلة العودة إلى الله والنفس والوطن والقضية، إنها قصة (وائل) الذي رحل تاركاً بلاه تحت سياط الصهاينة وهرب إلى أوربا كافرا بالمقاومة الشعبية الانتفاضة تعويضاً عن ضعفه وباحثا عن الدولار، هذا الوائل يكتشف عقم مشروعه الهروبي فيقرر العودة لكي لا يموت بلا مقابل، لكن ضريبة هذا الوعي المتأخر تكون الموت الذي حاول وائل أن يستقبله واقفاً فلم يستطع لأن الوعي المريض لا يكون غرسة مثمرة في أرض الرباط.

قلنا إن الالتزام يسم هذا العمل المعجون بوعي فكري وإخلاص واضح للإسلام معتمداً على موروثنا الثقافي - حضنا في وجه كل العاديات - ... «ألا يثير دهشتك أن يُهاجم الإسلام بكل هذا العنف والشراسة حتى تخالها معركة حياة أو موت، حرب ثقافية، سياسية، عسكرية، والمستهدف هو الإسلام»(١). تمثل هذا الوعي بالتصدي للأفكار المغلوطة عن الإسلام وإدحاضها كأن يقاس الإسلام بحامليه: «نور لم تعد تثق بأي عربي، حاولتُ مراراً أن أجعلها تفهم أن الإسلام يحكم عليه بذاته لا من خلال المسلمين»(٢).

كذلك الانتصار للمفاهيم الإسلامية التي حاولت جهات عديدة تشويهها، مؤكدة أن الإسلام تقدَّم كل المبادئ باحترامه المرأة ومنحها كينونتها أما وزوجة وابنة. «الإسلام قدّم الحل المثالي للمرأة حين أحل الطلاق»(٣).

واقرأ معي هذا المنطق الدقيق والجدل الهادف البعيد عن الصراخ، تقول الكاتبة على لسان المرأة الأجنبية التي أنصفت حضارتنا: «احتجت عشر سنين من البحث والعمل لأكتشف أن ما تركه المسلمون أعمق أثراً وأقوى تأثيرا، أتعرف لماذا؟ لأن الفراعنة ينتزعون منك الدهشة والخوف، يلونون وجهك بالإثارة ولا يمنحونك غير الشعور بعظمتهم، بينما يدهشك المسلمون بحضارتهم ويمنحونك القدرة على الاستمرار من حيث توقفوا»(٤).

هذا الوعي على الإسلام وبه جعل شخصيات القصة تنطق بما يتفق مع هذا الدين فيما يتعلق باستقبال المولودة الأنثى على عكس الشائع من استنكار وتقطيب وجه واسوداد سحنة «كانت (الأم) سعيدة كما لم تكن سعيدة من قبل،ابتسامتها هزمت ارتعاشات جسدها المتعب.. بطن أمه بدأت تكبر ويكبر معها الدعاء «يا رب بنت».. انظركم هي جميلة يا وائل»(٥).

الإسلام الذي تكون إرادة الإنسان خاضعة لإرادة الله، جعل الجد يتمثله سلوكاً ودعوة وغرس مفاهيم في ذهن الطفولة باستخدام القدوة؛ ففي الطريق للمسجد والطفل يقود جده يتساءل الطفل ببراءة:

«لماذا لا تصلي في البيت يا جدي؟
إن كنت متعبا يمكنك أن تعود..»(٦).

هذا الجد يجسد تمثله بالإسلام وعيا وسلوكا

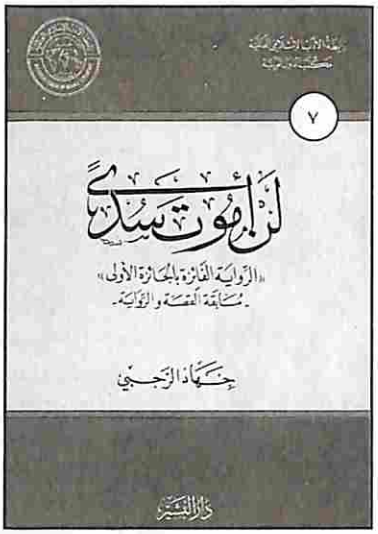

وقدوة بتعليم الطفل ما يجب تجاه قضيته ومغتصبي وطنه، وها هو يغرس في عقل الطفل خطابه التحريضي بمنطق هادئ بعيد عن الانفعال والافتعال ضد المحتل الغاصب:

« بكى وائل، قال لجده إنه لا يريد أن يكره حاييم، نهض الجد بتثاقل ثم قال:

« قد تحبه يا وائل ولكن تذكر أنه لا يمكنه أن يحبك، فهو يرى والده الذي يجر والدك إلى المعتقل بطلا وسيقول بأن عمك الشهيد ليس سوى مخرب! عليك أن تتذكر دائماً أنهم أعداؤنا، وأن أرجلهم فوق رؤوسنا وعلى أرضنا، قد نصبح يوما أصدقاء، ولكن ليس هنا، ليس في فلسطين وليس في زمن يكون ميزان القوة فيه بأيديهم »(٧).

الالتزام هنا يستمد من القرآن الكريم يغرف من معين التراث الذي انعكس بوضوح على سطور القصة مثل: هذا فراق بيني وبينك

- أهل مكة أدرى بشعابها.
- سواسية كأسنان المشط.
- حسداً من عند أنفسهم.
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »(٨).

[لن أموت سدى] مرافعة جميلة عن فلسطين القضية والأرض والإنسان والمبدأ، وهي قصيدة فخر تمجد انتفاضتنا المباركة ولعنة في وجه اللاهثين خلف أوهام المجد الزائف. « كل الناس يعيشون في الوطن إلا الفلسطينيين، فالوطن هو الذي يعيش فيهم... فالأم التي تزغرد لابنها الشهيد وهي تبكي تملك قلباً يتسع للوطن مهما كان كبيرا »(٩).

هذه القصة تقربنا من وجه الأحداث في غزة والضفة، وتتابع الأفعال الجهادية بجرأة ووعي، وترصدها بعمق وصل درجة التفلسف، « عندما يسعى المرء لمعرفة حقيقة الحياة عليه ألا يتجاوز الموت حتى لا تكون حقيقته وهماً كبيراً يسير به نحو النهاية دون أن يشعر »(١٠).

هكذا جاءت فصول هذا العمل، عزفاً جميلاً على إيقاع مبدأ شمولي عالمي خالد هو الإسلام الذي يعلمنا كيف نعيش الحياة بأمل المنتصر، ولذة العابد، وطمأنينة المفكر، ويدفعنا للموت مضحين بكل زائل من أجل حياة أبدية وسعادة لا تزول.

استهلال الفصول كان موفقا آسراً، وانفتاحها على فضاءات رحبة باستخدام جمل تثير الدهشة وتشد انتباه القارئ « عندما يصبح المكان عددا لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة يفقد قدرته على تجميع نفسه »(١١).

مستخدمة بإيجابية لافتة تقنية التقطيع السينمائي لبداية الفصول ونهايتها، إضافة إلى توفيقها باختيار عناوين الفصول التي كانت معبرة مثل: الهموم تصحو باكراً.

هذه التلقائية وهذه العفوية، وهذا الصدق البعيد عن الافتعال مع ما رافقها من صورفنية جميلة مثل: دمعة انكسار تغسل الوجه المرتعش.

نظرة غاضبة أطلت من عينيه.

انفجر ينبوع الضحك »(١٢).

كل ذلك أسهم في إيصال المضامين بيسر وسهولة.

هذه الإيجابيات جميعا لم تخل من نواقص، يلاحظ في هذا الإطار القصدية المسبقة في رسم الشخصيات فهل محض صدفة مثلا أن تضع العجوز الأجنبية كتاباً في حقيبتها يشيد بالإسلام حتى تستشهد المؤلفة بمطولات منه تصل إلى صفحة ونصف الصفحة من الرواية!؟.

كذلك يمكن ملاحظة بروز مستوى الخطاب الفكري واللغوي بين الشخصيات بشكل متساو دونما مراعاة لمستوى الشخصيات الفكري مع ما رافق ذلك من استطرادات مقحمة لا مبرر لها فنيا كما في صفحة (٥٠) كان يمكن لفصول القصة والقصيرة جدا أن تكون أطول بإعطاء أبعاد ملحمية للأحداث، وهي مهيأة لذلك من خلال تنامي العلاقات وتشعبها.

كذلك كان لطغيان الجانب الفكري على الفني مزالق جعلت رسم شخصية المرأة الأجنبية يعطينا انطباعاً متناقضا، فهذه التي تعتقد بالإسلام وتؤمن به، الأصل أن يدفعها إسلامها إن كان حقيقياً لإعلانه حتى لا يظل أسير الظلام والصوت الخافت، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن هذه المرأة تقع في تناقض يرفضه الإسلام والسلوك الغربي في آن معاً ذلك عندما تطلب من وائل أن يضيع الوقت بالحديث لتبديد وقت الرحلة الطويل(١٣).

يقودنا هذا إلى الحوار الذي كان قاسماً مشتركاً بين الفصول جميعاً وفيه ظهرت الفلسفة والإطالة وبعض الخطابية، ناهيك عن الاهتمام بظاهر الشخصية عموما دون تركيز كاف على دواخل الأشخاص وتتبع خلجاتها بإحكام من خلال

استخدام تيار الشعور الذي كان يمكنها به كسر إطالة الحوار الذي أتاح المجال لبروز بعض الذهنية مما أوقع الكاتبة في مباشرة هي في غنى عنها.

إذا ما تذكرنا خصوصية المكان في العمل القصصي، وتنامي الشخصيات، واعتماد السرد تقنية أساسية للقص وتيار الشعور الذي لم يكن حاضرا بفاعلية مرضية أدركنا كم ستكون روعة هذا العمل لو كان توظيفها فاعلاً.

تألقت الكاتبة عندما تعرضت لنقد الذات دون أن يجرفها الانفعال، وذلك بتوجيه اللوم للمسلمين - على لسان الأجنبية - الذين تثاقلوا عن إيصال فكرهم للآخر وسكوتهم عما يقوم به المستشرقون «الإسلام يتعرض لكثير من التشويه عندنا، وأنتم لا تتحركون، بل أنتم إحدى أدوات التشويه، عد للتاريخ لتعرف عمق الهوة بيننا وبينكم»(١٤).

[لن أموت سدى] جهد مبارك، يستحق الدرس والقراءة والمتابعة، والشكر لمجلة فلسطين المسلمة التي أتاحت لهذا الصوت الجريء الانطلاق، ولرابطة الأدب الإسلامي العالمية التي مكنتنا من قراءة هذا العمل والوقوف على تفاصيله؟(×).

(١) لن أموت سدى، ص ٩٨، ط ١، من إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية - ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، دار البشير - عمان.
(٢) المصدر السابق ص (٩٤).
(٣) المصدر السابق ص (٤٠).
(٤) المصدر السابق ص (٤٠).
(٥) المصدر السابق صفحات (٦٧، ٦٨، ٧٦).
(٦) المصدر السابق ص (٧١).
(٧) المصدر السابق ص (٧٢).
(٨) المصدر السابق ص (٢٣، ٣٩).
(٩) المصدر السابق ص (٦٤).
(١٠) المصدر السابق ص (٦٣).
(١١) المصدر السابق ص (٦٩).
(١٢) المصدر السابق ص (٦٠ - ٦٤).
(١٣) المصدر السابق ص (٣٢).
(١٤) المصدر السابق ص (٩٨).
(×) نشرت مجلة الأدب الإسلامي دراسة نقدية سابقة لرواية (لن أموت سدى)، وذلك في عددها ٥/٧٤ بقلم: أ. عبدالرزاق ديار بكرلي. التحرير.

بلد .. الظافرين

محسن عبدالمعطي - مصر

فلسطين
يا أملاً للفؤاد
ويامنتهانا
قلوب العروبة تهفو إليك
تؤلفها عاصفات الحنين
مشينا إليك السنين الطوال
ولم نقطع الدرب
لكننا
بذلناجهودا
ونلنا كثيرا
لأجلك يا أم
أنت منانا

***

عرفنا الطريق
سنمضي إليك بعزم الأسود
لنُرجع يا أم مجد الجدود
ونُصلح ما قد تهدم
نرفع صوت الأذان الحبيب

***

دعينا نسافر .. كيما نؤدي
حقوقك يا بلد الظافرين
ونأسو الجراح
ونورُ الصباح
يبدد يا أمُ صرحَ الظلام.